اقتحام حقول الألغام في المسألة السنية الشيعية

بقلم نوال السباعي

حملات التشيع في طول العالم وعرضه اليوم ، واقع لايمكن لأحد أن ينكره ، مهما ارتفعت الأصوات بالــشتائم والإهانات لكل من تجرأ فتعرض لهذا الملف الصعب !حتى لو كان كبير علماء هذه الأمة !!، لقــد وصــلت هــذه الحملات إلى صفوف الجاليات الاسلامية في أوروبا ، وبدأ شباب وشابات من المولودين في أوروبا إعلان تــشيعهم وانفصالهم عن آبائهم وأمهاتهم ، حملات التشيع المذهبية الدينية هذه ركبت موجة السياسة لتصل إلى قلوب النــاس خاصة فيم اتصل بالجهاد في سبيل الله لتحرير فلسطين ، وَرفعت شعارات الفداء والتضحية بقيادة "حــزب الله " في لبنان ، والتي لايستطيع مخالفتها ولا مراجعتها ولا نقدها أحد كائنا من كان!! ، وإلا كان له من الــتكفير والإهانــة والتوبيخ نصيب لايستهان به!.

هذا الخلط الخطير والكبير بين قضيتين منفصلتين إحداهما سياسية والأخرى مذهبية دينية يشكل اليوم واحدة مــن أهم الإشكاليات في المنطقة العربية ، والتي تختنق بعض نواحيها كمنطقة الخليج وبلاد الشام بجو طائفي مقيت ، جعل من السياسة مطية للدين ومن الدين مطية للسياسة! ، واختلطت الأوراق فيه إلى درجة جعلت شباب الأمة ومن كل الاتجاهات ينخرطون في مهاترات الكترونية عقائدية طائفية تنذر بشر مستطير مالم تجد الأوساط السياسية والدينية لها مخرجا .

أمران اثنان أديا إلى اختلال المعادلة الدينية السياسية في المنطقة بطريقة أسقطت التاريخ القديم على الجغرافيا الحديثة ، وجعلت من هذه المسألة حقل ألغام بالغ الخطورة يهدد كل من يحاول اقتحامه بالهلاك ، أولهما ماشهدناه في لبنــان خلال هذه السنوات من تطورات ، وماقام به حزب الله من جهاد وكفاح جعل منهما "الإعــلام العــربي" شــيئا استثنائيا في تاريخ الأمة! ، ضاربا عرض الحائط كل تضحيات الفلسطينيين وغير الفلسطينيين الصامتة منها أوالرنانة ، إضافة إلى الاغتيالات المؤلمة التي نالت القيادات ورموز الأمة في فلسطين ، والتي تــسببت أولا في خلــو الــساحات وخاصة "الاعلامية" تماما من "المجاهدين" ضد الاستيطان الاسرائيلي ، مما جعل من "حزب الله" اللبناني قائداً أوحداً في هذا المجال ، وجعل منه في ذات الحين رائدا دينيا توجيهيا عقيديا في حياة ملايين الشباب في المنطقــة ، الــضائعين المضيعين بين حكومات فاسدة ومرجعيات دينية منافقة في أكثرها ، فهؤلاء الشباب يرون أن المعضلة الحقيقيــة الــتي

تقف وراء معظم مشكلات المنطقة تكمن في هذه الدولة التي زرعها الغرب في أحشاء الأمة ، والتي تقبع هناك تقتــل وتسفك وتشرد والأمة تتفرج، وهم على استعداد للتعلق بأي جهة تدلهم على طريق الخلاص.

الأمر الثاني بالغ الخطورة والذي أدى إلى هذا الخلل الخطير في توازن الأمور كان موضوع "القاعدة" وماترتب عنه وعليه من إعادة غزو أفغانستان واحتلال العراق ، وعلى هامشه هذه الهجمة الكبرى على الاسلام وأهله ، والتــداعي المذهل لبعض الأنظمة العربية والتهافت المعيب لبعضها الآخر على نيل رضى الغرب أو التفاوض مع "اسرائيل" بعــد طول جعجعات بالصمود والتحدي! ، في ذات الحين الذي برزت في الساحة قوة اسلامية قديمة جديــدة تتحــدى الغرب ومحاولاته إذلال العالم الاسلامي ، وهي نفسها القوة التي ماتفتأ تتحدث عن الجهاد في فلسطين وتحرير الأقصى الشريف ، وقد فازت بذلك بقلوب الناس وولائهم.

إنه من الغباء المؤلم بمكان أن نعتبر أو أن ندفع باتجاه أن " إيران" هي العدو الذي ينبغي أن تعد لــه العــدد وأن تشترى لمواجهته الأسلحة بمئات المليارات ، ثم تكدس في أقبية التضييع والإهمال وعدم قدرة "الجندي" العــربي علــى استخدامها ، وإنه لمن الحماقة بكل الاتجاهات أن تركب "ايران" موجة المذهبية الدينية لتباشر غزوا دينيا فكريا غربيــا من نوعه للعالم الاسلامي بدل أن تلتزم مكانتها باعتبارها بعدا تاريخيا وجغرافيا وسياسيا بالغ الأهمية للمنطقة العربيــة قلب المنطقة الاسلامية ، وتلزم حدودها بهذا الاعتبار كما تفعل تركيا منذ انهيار الخلافة العثمانيــة مطلــع القــرن العشرين.

الوهن والانهيار العام الذي تعاني منه الهياكل السياسية الاقليمية العربية في المنطقة ، والذي يتماشى مع قصور بالغ للحركات الاسلامية في رفع الظلم عن البلاد والعباد وعجزها المدقع عن إحداث تغييرات واضحة جليــة في المجــال الاجتماعي والانساني ، فضلا عن تقاعسها المخزي في نصرة القضية الفلسطينية ، التي لم تدخل " أجندة" بعــضها إلا بُعيد أن بلغ وهج الانتفاضة الأخيرة عنان السماء بدماء أبنائها وأشلاء أطفالها وشهدائها، وخصوصا ماكان ممن يقال أنهم قياديون في تنظيم القاعدة ممن لم تكن فلسطين على رأس ولاجذع اهتماماتهم إلا بعد أن عانى تنظيمهم –ســواء كان حقيقيا أم افتراضيا!– من الهزيمة تلو الهزيمة بسبب سياساته الخرقاء في المبالغة في سفك الدماء والاعتــداء علــى الأبرياء في مشارق الأرض ومغاربها ، هذا الواقع العربي الأجرب ، هو الذي ترك الباب مفتوحــا علــى مــصراعيه للدعوات الطائفية والمذهبية في المنطقة أن تزدهر على جسر من الكفاح المسلح والإعداد المتميز والإعــلام العقائــدي الدؤوب الذي يعرف مايريد ، والذي لم يكتف بالدور التاريخي المُشَرف الذي لعبه في هذه المرحلة من تاريخ الأمــة فيم يتعلق بالقضية الفلسطينية على أرض لبنان بمشاركة كل الأطياف اللبنانية ، ولكنه تجاوز هذا الــدور مــستدعيا ملابسات تاريخية قديمة لإحياء نعرات ماكان باستطاعة إمام الأمة بإجماعها الشيخ "يوسف القرضاوي" العلامة المجاهد ضد الاستيطان الاسرائيلي والاستكبار الماسوني في العالم ، ماكان باستطاعته أن يقف مكتوف اليدين صــامتا أمــام مايجري من إدخال الطائفية كحصان طروادي في لحمة المجتمعات في المنطقة العربية .

كان لابد من التنبيه على الخطر الذي يتهدد المسلمين جميعاً السّنة منهم والشيعة بسبب هذه الحملات التي تنتشر انتشار النار في الهشيم في كل مكان ، تارة بالترغيب – الذي قد وصل "يقينا" في بعض المناطق الى دفع مبلغ ألــف دولار عن كل أسرة ! – وتارة بالترهيب وتارة تحت وطأة سطوة إعلامية ناطقة باسم المجاهدين والشهداء والأسرى أبطال المقاومة اللبنانية الشيعية ، باعتبارها البديل الحالي عن المقاومة الفلسطينية المهجرة والمهاجرة ، والتي تم القــضاء عليها في لبنان قبل أن تدخل المنطقة زمن الانتفاضة ومن قبلها زمن الصحوة التي يبدو أنها مازالت تائهة تبحث عــن صيغ اجتماعية وانسانية قبل أن تتورط في صيغ سياسية لاجدوى منها في سياق هذا الانهيار العام الفاضح الذي تعاني منه الهياكل السياسية للأمة.

حركة التشيع واقع لامناص من الاعتراف به ، ولافائدة ترجى من نفيه وإعلان الحرب غير اللائقة وغير الموفقــة ألبتة على من ينادون بالتنبه للاخطار المحدقة بالأمة إن استمرت الأمور على ماهي عليه من تمدد التاريخ ليحتل الحاضر في حركة بالغة الخطورة تهدد بنسف مستقبل الجميع ، إن "المنطقة العربية " مشرفة على محنة تتعلق بصمود هياكلــها السياسية القُطرية التي لم تفلح خلال ستين عاما في تغيير شيء من حال البلاد والعباد ، بل هو الخــراب والانهــدام والفوضى والعودة ببعض الأقطار إلى مراحل ماقبل التاريخ ، وإننا نجد أنفسنا اليوم جميعا سنة وشيعة ونصارى ، أمام أكبر تحد تاريخي يمكن أن تواجهه أمة وهي تعلم !!، إنها مسألة مصير ومستقبل ، يتوقف على وعي الجميــع بهــا أن نكون أو لانكون !، لأن هذه الحروب الكلامية الطائفية الممتدة نيرانا في هشيم شخصيات شبابنا عبر شبكة الانترنيت توشك أن تصبح حروبا حقيقية تمتد عبر حدود العراق إلى وجود الأمة كله.

عار على المسلمين بكل مذاهبهم وطوائفهم أن يَتهم بعضُهم بعضَهم الآخر بموالاة الصهيونية والماسونية ، وعــار أكبر أن تواجه دعوة الشيخ القرضاوي الجميع سنة وشيعة إلى التنبه والاستيقاظ بمثل هذه الاتهامات وهذا الاســفاف والفجور ، وهذا العار يصبح جريمة عندما يتعلق الأمر بدعوةٍ إلى إيقاف حملات خلط الــدين بالــسياسة بالتــاريخ بالأحقاد والثارات ، عار علينا أن لانفقه دروس التاريخ وأن تستمر المعركة بين "أبي مسلم الخراساني" و"أبي جعفــر المنصور" حتى بعد مرور أكثر من ألف عام على وفاتهما ، لم يذهب الرجلان إلى ذمة التاريخ ، يبدو أن ذمة تاريخنــا مسألة فيها نظر ، فهي لاتحفظ حرمة للأموات وليست لديها القدرة على تعليم الأحياء دروسا توقف المجــازر بــين الاخوة الأشقاء مرة بعد مرة ..وكل ذلك باسم الدين ، ثم ..ادعاءً للدفاع عن مصلحة الأمة ضد الأعداء!!.